



تدبر القرآن فريضة الأمة بواسطة الدلالة على الخير

أ.د. ناصر العمر

رحمنا الله عز وجل عباده إلى التدبر فيما أنزله إليهم من آيات كتابه العزيز بصور متعددة؛ فببعضه أو هذا التدبر هو المقصود بإنزال القرآن بقوله: {كتاب أنزلناه إليكم مباركاً ليذكروا آياته وليتذكر أولوا الألباب} [ص: ٩٢]، وأثنى على من أعرض عنه تدبره كما في قوله: {أفلم يذكروا أن القرآن أنزلناه بالقرآن من قبله أقرآنا ولو كان معه مدغم في غيره لوجدوا فيه آياتاً لا تأملها جاهل} [النساء: ٢٨]، وقوله: {أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه آياتاً لا تأملها جاهل} [النساء: ٢٨]، وقوله: {أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها} [محمد: ٤٢].

يدل على أهمية التدبر من جهة الشرع، فقد دل العقل على ذلك أيضاً، فمع لوازيم استخلاف الله عز وجل بني آدم في الأرض كما في قوله للملائكة: {إني جاعل في آل أبي طالب خليفته} [البقرة: ١٠٣]، أن بيته لهم استخلفهم منهجاً بيناً واضحاً يؤدونه به حق الخلافة على الوجه الذي يرضونه، وقد كان هذا يتم بما يوحيه إلى أنبيائه من الشرائع عبر الزمان، فلما آلت الخلافة لهذه الأمة الخاتمة، وأنزل عليها هذا الكتاب العظيم الذي لا كتاب بعده، كان لا بد أن يحوي بيته دفتيه منهج تحقيق الخلافة، ولكي تتعرف الأمة على تفاصيل هذا المنهج فلا بد لها من تدبر آياته؛ والمراد به كما قال العلامة السعدي رحمه الله: (التأمل في معانيه، وتحديق الفكر فيه، وفي مبادئه وعواقبه، ولوازم ذلك) (٢)، أي: ولوازم ذلك مع العمل والاتباع.

إن التأمل في حال المسلمين مع كتاب الله اليوم لا تخطئ عينه ما يرى من إقبال أعداد كبيرة منهم؛ رجالاً ونساءً، صغاراً وكباراً، على كتاب الله عز وجل بالتلاوة والحفظ؛ فجمعيات التحفيظ منتشرة في طول البلاد وعرضها، والمساجد تمتلئ بخلق التلاوة والتحفيظ، ودورات التحفيظ تدرج كل عام العشرات والمئات من الحفاظ، حتى قيل إن هذا العصر هو العصر الذهبي لحفظ القرآن الكريم. وهذا بكل تأكيد مما

شئنا لرفحناه بها ولكنه أخلد إلى الـ أرض واتبع هواه فمثل الـ كل بـ إن نـ نـ نـ
تـ رـ هـ يـ هـ ذلك مثل الـ قـ مـ الذي كذبوا بآياتنا فاقصص الـ قصص لعلمهم يتفكرون {
[الأعراف: ٦٧١، ٥٧١]، فيخشى على من قرأ القرآن ولم يتدبره ويتأثر به ويعمل به أن يلحقه شيء من
ذلك. النـ النـ النـ النـ النـ من تدبر القرآن الكريم حق التدبر حصل من المنافع والمصالح الدنيوية
والآخروية، ما لا يعلمه إلا الله، ومن أعظمها ما ذكره العلامة السعدي رحمه الله بقوله: (من فوائد
التدبر للكتاب الله: أنه بذلك يصل العبد إلى درجة اليقين والعلم بأنه كلام الله، لأنه يراه يصدق بعضه
بعضاً، ويوافق بعضه بعضاً) (٧)، ولهذا لم ينته إخواننا من الجهد إذ سمعوه حتى قالوا: {إنا سمعنا قرآنا
عجباً (١) به الذي إلى الرشد قد فآمننا به} [الجن: ٢، ١]، ومنهم من سمع القرآن {فلما حضروه قالوا أن صبوتنا
فلما قضى ولو إلى قوهم من ذريته} [الأحقاف: ٩٢]، وما هذا إلا لشدة تأثرهم بالتدبر
والتفكير. النـ النـ النـ النـ النـ وقد قال ابن القيم رحمه الله كلما يكتب بماء الذهب، قال: (ليس شيء أنفع
للعبد في معاشه ومعاده وأقرب إلى نجاته: من تدبر القرآن وإطالة التأمل فيه، وجمع الفكر على معاني
آياته) (٨)، وصدق رحمه الله، فإن التدبر في كتاب الله مفتاح كل خير، ومغلاق كل شر، قال السعدي رحمه
الله: (تدبر كتاب الله مفتاح للعلوم والمعارف، وبه يستنتج كل خير، وتستخرج منه جميع العلوم، وبه يزداد
الإيمان في القلب وترسخ شجرته. فإنه يعرف بالرب المعبود، وما له من صفات الكمال؛ وما ينزه عنه من سمات
النقص، ويعرف الطريق الموصلة إليه وصفة أهلها، وما لهم عند القدوم عليه، ويعرف العدو الذي هو العدو
على الحقيقة، والطريق الموصلة إلى العذاب، وصفة أهلها، وما لهم عند وجود أسباب العقاب. وكلما ازداد
العبد تأملاً فيه ازداد علماً وعملاً وبصيرة) (٩)، جعلنا الله والقارئ وجميع المسلمين ممن يتلون القرآن
الكريم حق تلاوته، ويتبعون التلاوة بالتدبر والعمل، إنه ولي ذلك والقادر عليه. النـ النـ النـ

إسهام جمعيات تحفيظ القرآن الكريم في بناء الأجيال، الواقع والمأمول، ص ١١٦-١٢٦. (٤) تفسير ابنه

كثير (٥) فتح القدير ٦/٦٣٣ (٦) التحرير والتنوير ١/٨٥٣ (٧) تفسير السعدي

مدارج السالكين ١/١٥٤ (٩) تفسير السعدي ١/٩٨١-٩٩١ موقع المسلم